الفصل الثالث

تشكيل السلوك الرمزي والمعادلة السلوكية

(الأجتماعية -النفسية)

الفصل الثالث

تشكيل السلوك الرمزي والمعادلة السلوكية

(الأجتماعية -النفسية)

يمكن القول ان آلية تشكيل السلوك الرمزي تتحدد بعاملين هما التصور الذهني والموقف الاجتماعي.

١ - التصور الذهني

ليست الرموز الا تصورات ذهنية جمعت الابستولوجيا وعلم اجتماع المعرفة في ميدان البحث العلمي-الاجتماعي، واذا كانت الابستمولوجيا تنتدب نفسها للبحث في صلاحية هذه الرموز، فان علم اجتماع المعرفة يتجه الى بحث الاطر الاجتماعية[١] لها. يقول دوركهايم عن التصورات انها ظواهر واقعية ذات خصائص نوعية يتصرف بعضها بأزاء البعض الاخر على وجوه شتى طبقاً لما يكون بينها او لا يكون من خصائص مشتركة[٢]. ولا شك ان هناك علاقة جدلية ما بين التصورات الاجتماعية، والوقائع الاجتماعية او الافعال الاجتماعية. واذا كانت الافعال الاجتماعية ذات زخم كمي فان التصورات عنها، ذات طابع معنوي، تنعكس في الرموز الاجتماعية التي تجيء ممثلة لها، فالسلوك الرمزي يرمي الى تكثيف الافعال والوقائع الاجتماعية من خلال

(١) د. محمد وقيدي، ما هي الابستمولوجيا، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص ص٢٠٦-٢٠٩.

(٢) اميل دوركهايم، علم اجتماع وفلسفة، ترجمة: د. حسن انيس، مصدر سابق، ص٣٨.

الادراك الذي هو تبيان للعلاقة بين الذات والغرض[١] باتخاذه احدى الصور التي قد تكون سلوكية-فعلية او لفظية او اشاراتية او ذهنية. ان الادراك ديمومة موضوعية تعني ادراك الشيء[٢] والديمومة تواصل معرفي بين الشخص المدرِك للفعل و بين الفعل، والمعرفة لا تتشكل لو لم يكن هناك علاقة تاثير وتأثر ما بين الفعل الاجتماعي والشخص المدرِكْ له، هذه العلاقة التاثيرية تكون من العمق والقوة حتى لتمتد من الجانب النفسي في ذات الفرد الى الصعيد السلوكي وبانقطاع هذا التواصل يتحول الادراك الى ملاحظة لا تتضمن (العلاقة التأثيرية) يبديها الشخص ضمن اطار التفاعل الحياتي العادي خلال حياته اليومية. من ناحية اخرى في حالة انقطاع التواصل المعرفي لا تتحقق البداهة التي هي "نمط من انماط الشعور ذو تميز خاص... يعطي لنا في ذاته شيئاً من الاشياء"[٣]. فعنصراها حسب تحديد ادموند هوسرل: (الديمومة الموضوعية، والديمومة الداخلية). وهما اللذان يحققان الترابط الكامل للتفاعل الاجتماعي الايجابي منه والسلبي في حالة تفاعلهما لم يحققا التفاعل.

والديمومة الموضوعية تعني النتاج المعرفي للعلاقة الاجتماعية ما بين الفرد والفعل الاجتماعي، حيث ان الفعل الاجتماعي هنا يمثل حقيقة شيئية لها وجودها، وتفاعل الفرد معها، يعني علاقة تحمل صفة التبادل على مستويين:

(١) ينظر. ريمون بودرن، مناهج علم الاجتماع، ترجمة: هالة شبؤون الحاج، مذشورات عويدات، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٧٢، ص٢٠-٢٤ .
(٢) ينظر. ادمون هوسرل، تأملات ديكارتية، ترجمة: تيسير شيخ الارض، دار بيروت، ١٩٥٨، ص١١٨-١٥٤.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٦.

الأول: مستوى الفكر الايجابي وانعكاسه على السلوك الاجتماعي. والايمان الفكري لمجمل اثار الفعل الاجتماعي يحدو بالفرد الى امتثاله سلوكياً.

الثاني: مستوى الفكر السلبي وانعكاسه على السلوك الاجتماعي، واللايمان الفكري بالفعل الاجتماعي يجعل الشخص رافضاً الامتثال له سلوكياً وتقر العلاقة التبادلية لهذين المستويين بوجود العقل الاجتماعي كشيء خارجي له تميز خاص.

بينما تعني الديمومة الداخلية عملية الشعور لادراك الشيء، أي تضمين السلوك الاجتماعي شعور الفرد، أو تضمين شعور الفرد السلوك الاجتماعي. هذا التضمين يعني العلاقة الذاتية لتفاعل الفرد بالفعل الاجتماعي، ويذسحب التضمين الشعوري فيصبح تمثيلاً بالمعنى المسرحي عند (غوفمان) وهو يتولد عن منظومة من رسوم الى الادراك والتقدير التي تتولد بدورها عن وضعية معينة[1] فرضها الوضع الاجتماعي.

حالة تفاعل الشخص مع الفعل الاجتماعي اذن قد تجلت في صور الادراك كما انها الشيء معبر عنه شعورياً. وتقوم الرموز هنا بوظيفة البدائل للعمليات الاجتماعية التي تشكل المصدر الاساسي لعملية المعرفة[2]. وعنصراً البداهة: (صور الادراك والتضمين الشعوري)، يحققان الوعي للفعل الظاهر وهو مظهر معين لكل سلوك بشري يستتبع تقسيم العمل وفق رؤية (لوسيان

(١) الفكر العربي المعاصر، بيير بورديو، الراسمال الرمزي، مصدر سابق، ص٤٨.
(٢) د. قبارى محمد اسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، نظرية المعرفة، ج٢، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط١، ١٩٨٩، ص١٥٤ .

غولدمان) [١]، فجاء الوعي هنا نتيجة لعملية اجتماعية اقتضاها المنطق الاقتصادي، وهو تقسيم العمل، وميدان المنطق الاقتصادي هو الميدان الاجتماعي فالعلاقة ما بين تقسيم العمل والوعي المترتب عليه، هي ذاتها ميدان الفعل الاجتماعي، صيرورة التفاعل الاجتماعي، ان كل "واقعة اجتماعية هي من بعض جوانبها الاساسية واقعة وعي"[٢] كما ان "كل وعي هو قبل كل شيء، تمثيل ملائم لقطاع معين من الواقع على وجه التقريب"[٣]. هذا يقضي الى توصيل المعرفة المتحققة عن الفعل الاجتماعي، الى اطراف التفاعل الاخرى، فيتحقق التفاعل الاجتماعي عن طريق العمليات الذهنية التي تشكل التصور الذهني حيث تتشكل التصورات الجمعية، بفعل التفاعل بين الافراد[٤]، وهنا يظهر، كون الرمز الاجتماعي صورة جمعية تحمل صفة الاكراه كخصصة من خصائص الموقف او الواقع الاجتماعي، ونجد الافراد ازاءها امام مفترق طريقين: اما الامتثال لقانون السلوك المختزل في الرمز، او الرفض واللاامتثال لهذا السلوك، وُنذَكِرْ ان رفض الفرد، تأكيد لصفة الاكراه الرمزي، اذ لا يمكنه ان يرفض شيئاً غير موجود، من جانب اخر فان الرفض لا يعدو ان يكون سلوكاً سلبياً خاصة اذا كان هذا السلوك مقر من قبل المجتمع عامة.

٢ - الموقف الاجتماعي:

(١) لوسيان غولدمان واخرون، البنيوية التكيفية والنقد الادبي، راجع ترجمة محمد سبيلا، مؤسسة الابحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص٣٣.
(٢)لوسيان غولدمان واخرون، البنيوية التكيفية والنقد الادبي ، المصدر السابق، ص٣٥.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) اميل دوركهايم، مصدر سابق، ص٥.

يعد الموقف الاجتماعي العامل الثاني (الاخير) في ظهور الرمز الاجتماعي وهو يتشكل من مجموع الافعال الاجتماعية والظروف الخارجية.

اما الافعال الأجتماعية فهي تنطوي على بعدين يتمثل الأول بالبنية القيمية ويتمثل الثانية بالبنية السلوكية، تؤثر هاتان البنيتان ببعضهما وفق منطق العلاقة التأثيرية حتى "تتدامج ضمن بُنْيات تحتويها وتشكلها"(١).

وليست البنية القيمية إلا ذات امتداد للتصور الذهني، وإذا كان الاخير وعياً للسلوك فان القيم هي الاطار التجريدي لهذا السلوك، فالتداخل ما بين القيم التي هي مثلاً عليا جمعية "لا يمكن أن تتكون ويشعر الناس بوجودها الا اذا ارتبطت باشياء يستطيع ان يراها الناس"(٢)، وما بين الوعي الذهني النابع من ذات الفرد للوجود الخارجي لهذه الاشياء، هذا التداخل يرسم الطرف الأول من معادلة الفعل الاجتماعي والتي يقوم التفاعل الاجتماعي على اساسها(٣).

بينما تكون البنية السلوكية-الاسهام التجريبي في تعزيز الفعل الاجتماعي وهي استمرار فعلي لتصور ذهني لافراد المجتمع. وجل الواقع الجمعي "ناتجاً لدوال ورموز وسلوكيات الافراد فيه"(٤).

الفعل الاجتماعي يجري ضمن ظروف اجتماعية، يمكن ان نصطلح عليها بالظروف الخارجية، كونها تشكل ميدانياً خارجياً عن الفرد سواءاً كان

(١) لوسيان غولدمان وآخرون، مصدر سابق، ص٤٧.
(٢) اميل دوركهايم، مصدر سابق، ص١٦٤.
(٣) ج. اسيبوف، قضايا علم الاجتماع، ت: د. سمير نعيم احمد و د.فرج احمد فرج، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠، ص١٠٩.
(٤) حولية كلية الانسانيات، د. عبد الله بن مسعود الطويرقي، مصدر سابق، ص٣٥٩؛ وينظر ايضا، معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي، مصدر سابق، ص١٩٠.

(الميدان) قيمياً ام فيزيقياً للفعل الاجتماعي، و هو لِماَ يتعرض له من تغير قد يساهم في تشكيل الفعل الاجتماعي، وفق المتغيرات. وهو ما يذهب اليه التفاعليون الرمزيون حينما يفسرون الحياة الاجتماعية حيث يرون "بان القائمين بالفعل ACTORS يكونون ويعيدون تكوين علاقاتهم المتبادلة بصورة مستمرة، كما انهم يعدلونها او يتخلون عنها تبعاً الى مقتضيات الظروف والاحوال"(١).

يمكن القول ان حاصل تفاعل التصور الذهني والموقف الاجتماعي افضى إذن الى سلوك اجتماعي له خصائصه المميزة كظرف استثنائي.. ركائزه الواقع الاجتماعي الصعب بسبب ظروف الحصار ومضمونه النفسي كميل مستقر للاستجابة لطائفة معينة من التاثيرات على نحو معين(٢).

و سلوكه الاقتصادي كعمل عقلاني يقوم به الفر د عند اقتناء حاجاته الضرورية الكمالية(٣) وربما تميز سلوكه الاقتصادي احياناً في اللاعقلانية لاسباب خارجة عن ارادته على سبيل المثال شرائه البضائع ذات الفكاءة القليلة رغم علمه بذلك بسبب تدني او رخص سعرها على سبيل المثال.

(١) د. قيس النوري و دز عبد المنعم الحسين، النظريات الاجتماعية، وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد، ١٩٨٥، ص٢٤٤.
(٢) ادمون هوسرل، مصدر السابق، ص١٤٦.
(٣) ج. اسيبوف، مصدر سابق، ص١٠٥.

ان تفاعل الفعل الاجتماعي والظرف الاجتماعي يشكلان:-

(١) الاستجابة الذاتية على المستوى الفردي المتمثلة هنا بالشعور الذاتي والتي تتحول الى استجابة اجتماعية بحكم الانتظام الذهني للافراد على مستوى المجتمع، والمتمثلة هنا بالفعل الاجتماعي.

(٢) الثقافة الاجتماعية او معرفة الحياة الايومية المتولدة عن ذاتي من داخل التنظيم الاجتماعي.

يتضح ان التفاعل الاجتماعي عملية ذات جانبين هما الاستجابة للوسط[١] والتاثير فيه من ناحية، ومن ثم اختزال العملية التفاعلية برموز ذات معاني اجتماعية من ناحية ثانية. وتفاعل الفعل والظروف يشيران الى اجتماعية سلوك الفرد، فالكائنات البشرية كما يعتقد جورج هربرت مید "لا تتصرف اتجاه بعضها البعض بصورة مستقلة، لانها اجزاء من مجاميع ومجتمعات يوجد اتفاق عام بين اعضاءها حول الانجاز المناسب للادوار الاجتماعية المختلفة"[٢]، التي، تكون من التنوع والاختلاف والكثرة، ما يكون من الصعب تمثلها جميعاً ودفعة واحدة، لذا فان الرمز الاجتماعي للنمط السلوكي جاء تكثيفاً واختزالاً لكم هائل من الانماط السلوكية، في صيغ فكرية او مادية حملت المعاني الاجتماعية التي عبر عنها الافراد في سلوكياتهم الاجتماعية.

يمكن القول ان حاصل تفاعل التصور الذهني والموقف الاجتماعي افضى إذن الى سلوك اجتماعي له خصائصه المميزة لظرف استثنائي، ركائزه الواقع

(١) د. قيس النوري و د. عبد المنعم الحسني، النظريات الاجتماعية، مصدر سابق، ص٢٦٠.
(٢) ينظر اينو روزي، المصدر السابق، ص١٠٠-١٠٢.

الاجتماعي الصعب، بسبب ظروف الحصار، ومضمونه النفسي كميل مستقر للاستجابة لطائفة معينة من التاثيرات نحو معين[١] وسلوكه الاقتصادي، كعمل عقلاني يقوم به الفرد عند اقتناء حاجاته الضرورية والكمالية[٢] وربما تميز سلوكه الاقتصادي احياناً باللاعقلانية لاسباب خارجة عن ارادته على سبيل المثال شرائه البضائع ذات الكفاءة القليلة رغم علمه بذلك بسبب تدني او رخص سعرها.

ولقد تميز السوق العراقي قبل عقد التسعين بالاستقرار والثبات بفضل السياسة الاقتصادية التي تبنتها الدولة فما متوفر في السوق كان يشبع الحاجات الاساسية، وبأسعار مساوية لمستوى الدخول.

ولم يكن اقتناء الحاجات يتم بجهود مضنية، تؤدي على خلق ميول ودوافع نفسية غير طبيعية بالنسبة للافراد، حيث ان هذه الميول والمواقف تبرز الى السطح، في حالة بذل جهود كبيرة للحصول عليها.

ان الارتباط الحاصل بين الثبوت أو الاستقرار والتغير وصعوبة الفصل بينهما دفع ذوي الاختصاص إلى استخدام مصطلح "التوازن الحركي" للتعبير عن الازدواج بين الثبات والتغير في وقت واحد[٣].

والمتفحص للسوق العراقي اثناء الحصار الجائر، يالف دينامية التوازن الحركي، فاستقرار وثبات لفترة معينة وجيزة يعقبه تغير، وليست دواعي هذا التوازن دواعي اقتصادية بحتة، وانما دواعيه اقتصادية ممزوجة بدواعي

(١) حنا غالب، التربية المتجددة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٠، ص٤٤٦.
(٢) معن خليل عمر وآخرون، المدخل الى علم الأجتماع، جامعة بغداد، دون تاريخ، ص٢٢٢.
(٣) د. قيس النوري، آفاق التغير الاجتماعي النظرية والتنموية، مصدر سابق، ص١٦.

سياسية تختلقها الإمبريالية الامريكية، فنجم عن هذا التوازن الحركي لا استقرار نفسي لدى جميع المواطنين تجاه الوضع الاقتصادي ترتب عليه (أي الوضع النفسي اللامستقر) سلوك اقتصادي ذي تميز كفافي بالنسبة لذوي الدخول المحدودة، وسلوك اقتصادي ذي تميز تجاري بالنسبة لاصحاب الاموال.

لقد كان من نتائج التوازن الحركي ان نجمت هوّة بين ذوي الدخول المحدودة و بين ذوي الدخول اللامحدودة، و قد تعمقت هذه الهوّة نتيجة طول فترة الحصار الجائر، وسعى كلا الطرفين إلى التعامل مع وضعه الاقتصادي والاجتماعي والنفسي تعاملا قصديا، حيث ان السلوك القصدي "ينجم عن حث داخلي نحو غاية معينة... وان كانت القصدية فيه احيانا غير مشعور بها"[1] فالطرف الاول سعى إلى تأمين لقمة العيش وسد الرمق، والثاني يعمل من اجل تنمية ثروته، وكلّ يسعى إلى المحافظة على وضعه لا شعوريا.

أن التغيرات المستمرة يمكن ان تؤدي إلى زعزعة الشخصية التي هي حصيلة مجموع الدوافع والانفعالات، وان كل دراسة للمحور الاجتماعي لا يمكنها ان تهمل المحور النفسي المتأطر بالجانب الشخصي.

وكان من آثار الحصار على السلوك الاقتصادي ان تشكلت معادلة سلوكية يمكن ان نطلق عليها تسمية المعادلة الاجتماعية-النفسية (مضمونها مجتمعي-شخصي).

يمكن ان نقول عنها انها في مجموعها شكلت سلوكاً رمزياً ميز عقد التسعينات لأنطوائها على مبادئ الشعور والعقل والوعي كما الموقف

(١) د. حنا غالب، مصدر سابق، ص٣٤٠.

الاجتماعي وهي مقومات وركائز السلوك الرمزي على النحو الذي بحثنا في آلية تشكيل السلوك الرمزي.

يتميز السلوك الشخصي من كونه نابع من دخيلته متجاوزاً قدر الامكان كل تفاعل اجتماعي يجنبه احراجاً اجتماعياً خاصة فيما لا يستطيع الايفاء بالتزاماته الاجتماعية بسبب عوزه الاقتصادي فيعمل أولاً على اشباع حاجاته الاساسية والأتيان بسلوك اجتماعي يتوافق ومجمل الظرف الذي يعيش فيه خاصة في المدينة التي تبرز فيها المنفعة الفردية، وهذه بحد ذاتها مشكلة كبيرة عاشها العراقي عموماً فهوم من جهة محكوم بمنطق المنفعة الفردية ومطالب في ذات الوقت بالالتزام الأجتماعي. وهو موقف طبيعي على حد ما في ظل العيش ضمن المرحلة الانتقالية ما بين الحضرية والريفية التي يعيشها عالمنا العربي عموماً وهو إن كان طبيعياً بحكم المنطق الإجتماعي وان حكمه منطقة الحصار الذي أحذ يبرر لكثير من السلوكيات التي لم تعد تتلائم والمنطق الأجتماعي التقليدي، من هنا تشكل طرف المعادلة الأول الذي ينص على دور الدوافع في تحديد اشباع الحاجة ضمن ظرف معين متحرراً من متطلبات ومحددات مركزه الاجتماعي.

وكانت استجابة المجتمع إزاء السلوك الموجه تمثل الطرف الثاني للمعادلة، الاجتماعية-النفسية، وهي استجابة جبرية خارجية تأخذ هيأة التكيف الاجتماعي المتضمن عنصر التفاعل الاجتماعي، ومما يدلل عليه (التكيف الاجتماعي) "ان البشر يميلون إلى التعامل مع الحالات المستجدة كما لو كانت تناظر، ما يقابلها من الحالات التقليدية"(١)، ويلازم هذا التكييف صفتان.

(١) د. قيس النوري، آفاق التغير الاجتماعي النظرية والتمويه، مصدر سابق، ص١٦١.

الأولى: تضامنية صورية.

الثانية: نفسية سلوكية.

الأولى تأخذ صيغة الرفض التضامني، معبراً عنه لفظياً، تجاه سلوك السوق فالكل يبدي عدم رضاه تجاه سلوك التجار وتجاه الباعة، وتجاه غلاء الاسعار ومن ضمن الرافضين التجار والباعة أنفسهم، وهو رفض صوري وليس فعليا، في حين ان الثانية المتمثلة باللااستقرار النفسي تحفز الجميع سلوكياً على القيام بأنماط عمل هي عكس ما يقولون.

في صيغة تبرير لغوي وهو في واقع الحال تبرير اجتماعي اتخذ من اللغة قاعدة اساسية يؤطر بها فعله، ولغته (المجتمع العراقي) هي ليست لغة منفصلة عن الواقع الاجتماعي، بل إنها لغة تفاعل مع الموقف الاجتماعي، وتذهب إحدى عالمات اللغة الاجتماعية إلى أنه "عندما يبني متكلم قولاً يمكن أن يكون اختبار السمات اللغوية، ومشكلتها ووظيفتها مشروطاً بجملة من المعطيات غير اللسانية تلك الماثلة في الواقع الخارجي، والماثلة أيضا في فكر المتكلم أو في مشاعره ذاتها"(١)، وكتب باحث آخر يعزز ذلك التفاعل بين الكلمة والفعل الاجتماعي "أن استعمال شكل لغوي يحدد سلسلة من المعاني فيمكن لوضع (فوري) قبول سلسلة معاني.... وعندئذ يصفي الوضع المعاني المحتملة بالنسبة للشكل اللغوي غير تلك التي يمكن لهذا الوضع ذاته قبولها إذ يتوقف المعنى الحقيق مع تفاعل الشكل اللغوي والوضع"(٢).

(١) جولييت غارمادي، اللسانة الاجتماعية، مصدر سابق، ص٨٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٦.

ان تبرير مفهوم لغوي يظهر التفاعل بشكل واضح بين الاسلوب الكلامي وحاجات الناس، فحينما تستخدم مفردات التبرير كأدوات للتعبير عن معطيات الواقع الخارجي والحاجات النفسية الماثلة في نفوس الافراد القائمين بالفعل الاجتماعين يتجلى تفاعل الكلمة مع الموقف.

وحينما نفحص السلوك الاجتماعي بشكل عام فإننا نجده لا يخرج عن هذه الحقيقة ويتفق مع هذا الرأي (هالويل واريكسون) في اعتقادها بأن حقيقة الثقافة تكمن في مجال الادراك المعرفي.

لقد كشفت الملاحظة المباشرة وبالمشاركة من أن التبرير اللغوي للواقع الاجتماعي، أسلوب دفاعي يستخدمه الشخص لتحقيق الأمن النفسي، يحاول أن يتحصن به الفرد في ظل الظروف الاستثنائية التي يعيشها.

المعادلة الاجتماعي – النفسية

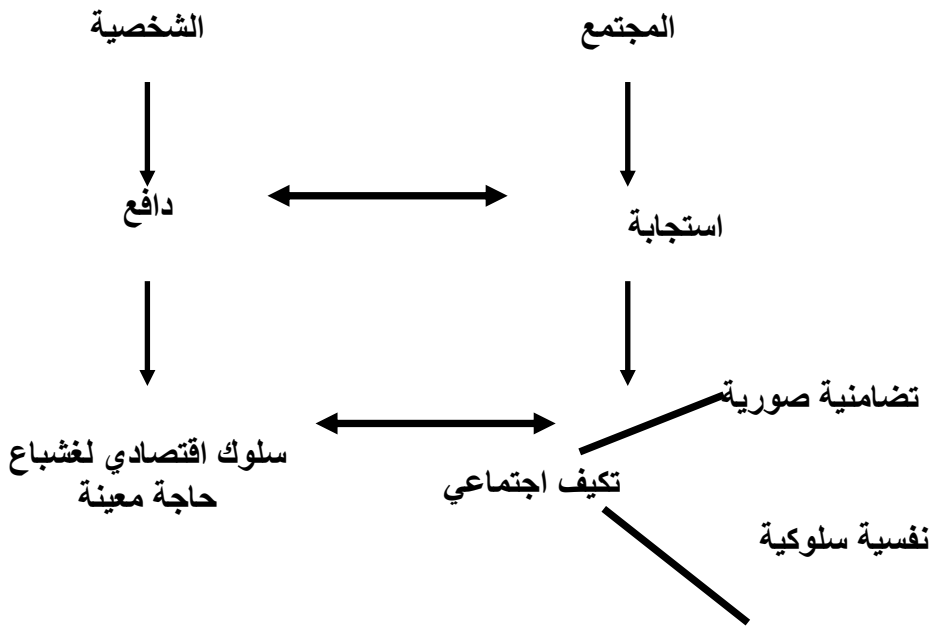

تكشف المعادلة النفسية- الاجتماعية في حقيقة الامر ان ثقافة المجتمع وقيمه لا تحددها البنى الهيكلية، كما لا يحددها الافراد كل على حدى بل في تكاملهما مع بعضهما، لقد اصبحنا الان مستعدين لمفهوم التشكيل البنائي الذي يقوم على فكرة مؤدها ان تشكيل الفاعلين والابنية ليسا ظاهرتين مستقلتين (أي ثانئية) ولكنهما تمثلان ازدواجية فالخصائص البنائية للانساق الاجتماعية هي بمثابة وسيلة ونتيجة للممارسات التي تنظمها وبصورة متكررة او ان لحظة انتاج الفعل هي ايضا لحظة اعادة انتاجه في سياق الاحداث اليومية للحياة الاجتماعية(١).

وهو ما يتجلى في استجابة المجتمع ودوافع الشخصية العراقية الذي افرز تكيفاً اجتماعياً تضامنية صورة ونفسية سلوكية وفي سلوك اقتصادي لاشباع حاجة ترتب عليه ممارسات وسلوكيات اجتماعية حاولت ان تتبنى ابنية قيمية هي ليست من انتاجه الكلي ولكنها اكتملت به فعبر عنها نمطياً بسلوكه الاجتماعي فكانا كلاهما واحداً الفرد يتصرف ليشبع حاجاته وبالمقابل المجتمع يبرر تلك السلوكيات.

ولما كانت الخبرات الاجتماعية أو السلوك عموما يعمل على دعم وتحقيق استجابة للمواقف الاجتماعية والنفسية فان توكيد هذا السلوك هو دعم للبناء الاجتماعي ولكن مما يلاحظ على صعيد الظروف الاستثنائية أو الحرجة "إن الخبرات إذا حصلت قبل أو بعد هذه الفترات الحرجة، اضعف التأخر أو التقدم الاستجابة المرغوب فيها أو ابطلها"(٢) وفي هذا إضعاف لانساق البناء

(١) مصطفى خلف، مصدر سابق، ص٤٤٧.
(٢) د. حنا غالب، مصدر سابق، ص٢١٧.

الاجتماعي، ومن هنا فإن دراسة الخبرات الاجتماعية المتولدة أثناء هذه الظروف يؤدي بنا إلى تشخيص أنماط سلوك هذه الظروف.د

وعند تجوالنا في الاسواق الشعبية القريبة من البيوت السكنية، وعند مرورنا بالطرق العامة نرى هنا وهناك باعة المفرد، منهم من افترش الارض وراح يدلل على بضاعته، ومنهم من اقتنى عربة صغيرة أوقفها محاذاة الطرق الرئيسية حتى كانت هذه الظاهرة تبدو مالوفة للعامة، وفي حال عودتنا لواقع المجتمع العراقي قبل العدوان الثلاثيني أي قبل الحصار الجائر نلاحظ أن ظاهرة البيع المفرد كانت حصرا على اصحاب الدكاكين، وقلما تجد بائعاً مفرداً يبيع من بيته أو تجد صاحب عربة متجولة، كما نلاحظ ان هذا العمل ان وجد فقد كان حصراً على فئات محددة في المجتمع تمتاز للفقر المدقع وهي قليلة جداً نظراً لمتانة الوضع الاقتصادي والرخاء المعيشي الذي وفرته حكومة الثورة.

أما اثناء الحصار فان شيوع هذه الظاهرة يمثل استجابة لمستجدات وضع جديد، وهو يمثل طرف المعادلة الثاني (الشخصي) من اجل تحقيق الأمن النفسي بوجود مصدر رزق ثان يضاف على مصدر الدخل الاصيل الذي لم يعد يفي بغشباع الحاجات، وتمثل حالة القبول الاجتماعي لهذه الظاهرة استجابة نفسية لكل فرد تأخذ شكل مقياس اجتماعي لطبيعة المحددات الثقافية لهذه المرحلة،مشكلة بذلك طرف المعادلة الأول (المجتمع).

وبامتثال الفرد ورفضه يشكل تفاعلاً اجتماعياً رمزياً والتعامل مع الرمز بصفة الامتثال يزيد من تعميقه، واللاامتثال يزيد من اعطائه صورته وشكله لانه يجعل منه (الرمز) طرفاً في معادلة المقارنة، وهذا يعني الاعتراف بكونه يشكل جزءاً مستقلاً له ابعاده المميزة.

وهذا يكشف عن تحقق للوعي بالظرف الاجتماعي فيتحقق بذلك التفاعل الاجتماعي وفق الادراكات والقناعات المعرفية لطبيعة السلوك الاجتماعي فيتحقق عندئذ الحكم القصدي المتضمن في معنى المفكر به عن طريق تمثل الادراكات التي انضجها الوعي وعكسها سلوكياً في الواقع الاجتماعي، واشكال الوعي مرتبط "بمحتوى التجربة والتجارب هي توجيه الانتباه نحو اشياء حقيقية كانت أو خيالية، مادية أو مثالية، وكل هذه الاشياء تكون مقصودة"(١) فيتسنى للافراد ادراك السلوك من خلال رمزيته "ومعنى ذلك ان هناك مواقف تثير الفكر الانساني من ناحية كما ان هناك من ناحية اخرى استجابات جاهزة من السلوك وانماطاً سابقة من الفكر بفضلها يستطيع الانسان ان يواجه تلك المواقف خلال حياته الاجتماعية"(٢) هذه المواقف استناداً الى راي التفاعليين الرمزيين(٣) بحكم تكرارها وترسخها في ذهن الافراد تكون الاساس في تشكل الرمز الاجتماعي الذي يصبح ممثلاً لها (المواقف الاجتماعية) حاملاً معانيها المتعددة، وجهد العقل الاجتماعي الجمعي في تنظيم هذه المعاني المستحصلة من التجربة هو من جانب اخر ظاهرة مكملة لعملية الادراك(٤)

استتبع هذا النشاط الذهني، تشكل التصور الذهني الذي جاء نتيجة ادراك ووعي من قبل الافراد للسلوك الاجتماعي، وهو لم يكن تصور ميتافيزيقياً، وانما تصور واقعي للافعال الاجتماعية التي مارست قسراً فيزيقي أم ثقافي،

(١) المجلة الجزائرية للاتصال، د. عبد الرحمن رمزي، مصدر سابق، ص١٣٩.
(٢) د. قبارى محمد اسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة، مصدر سابق، ص١٤٨.
(٣) ينظر: د. معن خليل عمر، نقد الفكر الاجتماعي المعاصر، مصدر سابق، ص١٨٩-١٩٠.
(٤) جون جاردنز، تجديد الذات، ترجمة احمد حمودة، دار الكرنك للنشر، ١٩٦٧، ص١١٨.

هذا التصور يعد العامل الاول من العوامل بزوغ الرمز الاجتماعي في الحياة الاجتماعية.

طبيعي ان تتفاوت ثقافات الافراد المعرفية بمستوياتهم الاجتماعية، وان كانت تحكمهم قيم حضارة المجتمع الواحدة، الا انه بفعل التفاوت يكون التعبير عن الحقيقة الاجتماعية متبايناً كل فئة او شخص ينظر اليها من زاوية ثقافته الفئوية او الشخصية، ويكون التوفيق بين وجهات النظر المتباينة من خلال التنميط الرمزي للسلوك الاجتماعي الذي يجعل بالامكان التبادل الاجتماعي وانسيابية المعاني الاجتماعية، ذلك ان الرمزية سمة اساسية لا يستطيع البشر الاداء بدونها حتى عندما لا يكونون على علم او وعي بالقوانين الرمزية لنشاطهم الذهني حسبما يرى ليفي شتراوس[1].

ان الكثير من الظواهر التي افرزها الحصار ليست إذن سوى مركبات ثقافية مرحلية ارتبطت بالاتجاهات الذهنية من سياسية الى اقتصادية الى اجتماعية افرزها الظرف الاستثنائي في صيغ رمزية عمل المجتمع على اقرارها لاشباع حاجات استجدها الظرف الاستثنائي، فحاول بناء مثاله القيمي الجديد الذي لم يدم طويلاً بسبب احتلال البلد من قبل امريكا في ٢٠٠٣/٤/٩.

(١) اينو روزي، مصدر سابق، ص١٦٤.